

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

نداء الله تعالى للمؤمنين

النداء التاسع عشر

تحريم عطل النساء



علي بن نايف الشحود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النداء التاسع عشر

تحريم عطل النساء

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا
النِّسَاءَ كَرِهًا كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا
آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١١) } وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ
زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) } وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ
وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا (٢١) } سورة النساء



كَانَ النَّاسُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُونَ النِّسَاءَ كَالْمَتَاعِ فَإِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ يَتَزَوَّجُونَهَا بِدُونِ مَهْرٍ وَلَا رِضَا مِنْهَا ، وَكَأَنَّهَا شَيْءٌ مِنْ مِيرَاثِ الرَّجُلِ الْمِتَوَفَّى ، فَإِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوَّجُوهَا ، فَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ لِإِبْطَالِ هَذَا التَّعَامُلِ الْجَائِرِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ بِعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِالْمَرْأَةِ ، وَبِعَدَمِ مُضَايَقَتِهَا (عَضْلِهَا) فِي الْعِشْرَةِ لِتَتْرِكَ لِلرَّجُلِ مَا دَفَعَهُ لَهَا مِنْ مَهْرٍ ، أَوْ بَعْضِ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ ، أَوْ شَيْئاً مِنْ حُقُوقِهَا فِي الْمِيرَاثِ ، عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ وَالْإِضْرَارِ .

أَمَّا إِذَا زَنَتِ الْمَرْأَةُ فَكَانَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَيْهَا ، وَأَنْ يُضَاجِرَهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ (أَيُّ أَنْ لَهُ عَضْلُهَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ) . أَمَّا فِي غَيْرِ حَالَةِ الزَّنى فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الرَّجَالَ بِمُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ بِالْمَعْرُوفِ ، أَيُّ مَعَ طَيِّبِ قَوْلٍ ، وَحُسْنِ فِعْلٍ ، حَتَّى وَلَوْ كَرِهُواهُنَّ ، فَقَدْ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ شَيْئاً وَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ، كَأَنْ تَلِدَ لَهُ الْمَرْأَةُ وَلِداً يَنْبَغُ أَوْ يَسُودُ ، أَوْ يَكُونُ ذَا شَأْنٍ أَوْ أَنْ يَنْصَلِحَ حَالُهَا فَتَكُونَ سَبَباً فِي سَعَادَتِهِ .

وَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَتَهُ لِكُرْهِهِ إِيَّاهَا ، وَعَدَمِ صَبْرِهِ عَلَى مُعَاشَرَتِهَا ، وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ غَيْرَهَا بِهَا ، وَهِيَ لَمْ تَأْتِ



بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ، وَكَانَ قَدْ أَعْطَاهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ مَقْبُوضاً
 أَوْ مُلْتَزِماً ، دَفَعَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ صَارَ دَيْناً فِي ذِمَّتِهِ ، فَعَلَى الرَّجُلِ
 أَنْ لَا يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئاً ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَيْهَا بِالْكَامِلِ ، وَلَوْ
 كَانَ قَنِطَراً مِنَ الْمَالِ . ثُمَّ يُنكَرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الرَّجَالِ
 الْبَاهِتِينَ الْأَثِمِينَ الَّذِينَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا
 تَطْلِيقَ الزَّوْجَةِ رَمَوْهَا بِالْفَاحِشَةِ حَتَّى تَخَافَ وَتَشْتَرِيَ
 نَفْسَهَا مِنْهُمْ بِتَرْكِ الْمَهْرِ الَّذِي دَفَعُوهُ .

وَيُكَرِّرُ اللَّهُ تَعَالَى إِنْكَارَهُ عَلَى الرَّجَالِ الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ بِأَخْذِ
 شَيْءٍ مِمَّا أَعْطَوْا النِّسَاءَ مِنْ مَهْرٍ وَصَدَاقٍ فَيَقُولُ : كَيْفَ
 تَسْتَسِيغُونَ أَخْذَ شَيْءٍ مِمَّا دَفَعْتُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ كَلًّا أَوْ
 بَعْضاً ، بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَتِ الرَّابِطَةُ ، بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، بِأَقْدَسِ رِبَاطِ
 حَيَوِيٍّ ، وَلَا بَسَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخِرَ ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِالِاتِّصَالِ
 الْجَسَدِيِّ ، حَتَّى صَارَ أَحَدُهُمَا بِمِثَابَةِ الْجُزْءِ الْمُتَمِّمِ لِلآخِرِ ،
 وَأَخْذَنَ عَلَيْكُمْ عَهْدَ اللَّهِ عَلَى إِمْسَاكِهِنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ
 تَسْرِيحِهِنَّ بِإِحْسَانٍ؟!

كان بعضهم في الجاهلية العربية - قبل أن ينتشر
 الإسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم إلى مستواه
 الكريم - إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته
 يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات! إن شاء بعضهم
 تزوجها وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها - كما يبيعون
 البهائم والمتروكات! - وإن شاءوا عضلوهها وأمسكوهها في
 البيت . دون تزويج حتى تفتدي نفسها بشيء ..





وكان بعضهم إذا توفي عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه فمنعها من الناس وحازها كما يحوز السلب والغنيمة! فإن كانت جميلة تزوجها; وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها أو تفتدي نفسها منه بمال! فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقي عليها ثوبه فقد نجت وتحررت وحميت نفسها منه!

وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد; حتى تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها .

كله أو بعضه!

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها!

وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها ، فيحبسها عن الزواج حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها ويأخذ مالها!

وهكذا . وهكذا . مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التي ينظر بها الإسلام لشقي النفس الواحدة; ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء . . ويحيل العلاقة بين الجنسيين علاقة تجار أو علاقة بهائم!



ومن هذا الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالي الكريم اللائق بكرامة بني آدم الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين . فمن فكرة الإسلام عن الإنسان ، ومن نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية ، كان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر الكريم .

حرم الإسلام وراثه المرأة كما تورث السلعة والبهيمة كما حرم العضل الذي تسامه المرأة ويتخذ أداة للإضرار بها - إلا في حالة الإتيان بالفاحشة وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف - وجعل للمرأة حريتها في اختيار من تعاشره ابتداءً أو استئنافاً . بكرأ أم ثيباً مطلقة أو متوفى عنها زوجها . وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال - حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة - ونسب في هذه الحالة نسمة الرجاء في غيب الله وفي علم الله . كي لا يطاوع المرء انفعاله الأول فيبيت وشيجة الزوجية العزيزة . فما يدرية أن هنالك خيراً فيما يكره هو لا يدرية . خيراً مخبوءاً كامناً لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه :

{ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهأ ولا

تعصلوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن - إلا أن یأتین بفاحشة مبینة . وعاشروهن بالمعروف . فإن کرهتموهن فعسى أن تکرهوا شیئاً ویجعل الله فیہ خیراً کثیراً } ..

وهذه اللمسة الأخيرة في الآية تعلق النفس بالله وتهدىء من فورة الغضب وتفتأ من حدة الكره حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء; وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح . فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى . العروة الدائمة . العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربّه وهي أوثق العرى وأبقاها .

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً ويقيم هذه الأصرة على الاختيار المطلق كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب .. هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج : { فإن کرهتموهن فعسى أن تکرهوا شیئاً ویجعل الله فیہ خیراً کثیراً } .. كي یستأني بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر وكي یستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة وكي یحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جدیتها فلا یجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة وحماسة الميل الطائر هنا وهناك ..

وما أعظم قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لرجل أراد



أن يطلق زوجه « لأنه لا يحبها » .. « ويحك! ألم تبني البيوت
إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟ » ..

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم
« الحب » وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة ، ويبيحون
باسمه - لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية -
بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج
لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟!

وما يهجس في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر
من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة . ونزوة الميل الحيواني
المسعور . ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من
المروءة والنبيل والتجمل والاحتمال ما هو أكبر وأعظم من
هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط هزيل . . . ومن
المؤكد طبعاً أنه لا يخطر لهم خاطر .. الله .. فهم يعيدون
عنه في جاهليتهم المزوّقة! فما تستشعر قلوبهم ما
يقوله الله للمؤمنين : { فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا
شيئاً ويجعل الله فيهِ خيراً كثيراً } ..

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس وترفع
الاهتمامات وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة وطمع
التاجر وتفاهة الفارغ!



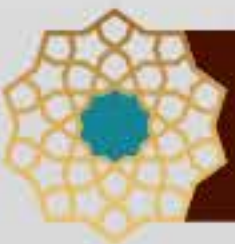
فإذا تبين بعد الصبر والتحمل والمحاولة والرجاء . أن الحياة غير مستطاعة وأنه لا بد من الانفصال واستبدال زوج مكان زوج فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق وما ورثت من مال لا يجوز استرداد شيء منه ولو كان قنطاراً من ذهب . فأخذ شيء منه إثم واضح ومنكر لا شبهة فيه :

{ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً؟ } .

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف في تعبير موح عجيب :

{ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً؟ } ..

ويدع الفعل : { أفضى } بلا مفعول محدد . يدع اللفظ مطلقاً يشع كل معانيه ويلقي كل ظلاله ويسكب كل إحياءاته . ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته . بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات والأسرار والهموم والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان . . وفي كل اختلاجة حب





إفضاء . وفي كل نظرة ود إفضاء . وفي كل لمسة جسم
إفضاء وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء . وفي كل
تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء . وفي كل شوق إلى
خلف إفضاء . وفي كل التقاء في وليد إفضاء ..

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر
والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى العجيب : { **وقد
أفضى بعضكم إلى بعض** } . . فيتضاءل إلى جواره ذلك
المعنى المادي الصغير ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما
دفع وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد
من صور الماضي وذكريات العشرة في لحظة الفراق
الأسيف!

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر
عاملاً آخر من لون آخر : { **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** } ..

هو ميثاق النكاح باسم الله وعلى سنة الله . . وهو ميثاق
غليظ لا يستهين بحرمة قلب مؤمن؛ وهو يخاطب الذين
آمنوا ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق
الغليظ





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
نداءُ اللهِ تعالى للمؤمنينَ

النداء التاسع عشر

علي بن نايف الشحود